الفصل الثالث

الأصمعى فى بغداد

رحلة الأصمعى إلى بغداد – مناقشة أخبار هذه الرحلة – اختيار الأصمعى وصرف أبى عبيدة – الأصمعى فى مجلس الرشيد – تخصصه لرواية الشعر والنوادر – الأصمعى فى معية الخليفة بالرقة – صلته بالبرامكة – عودة الأصمعى بعد مقتل جعفر بن يحيى البرمكى .

كانت بطانة الخلفاء عادة من العلماء وأرباب الأدب ، بدأ ذلك الأمويون ، فقربوا إلى مجالسهم الشعراء والرواة ، حتى إذا جاء عبد الملك أوسع لهم أماكنهم فى مجلسه ، واقتفى خلفاء الشام أثرَه ، وربما اختلفوا وهم بالشام فى بيت من الشعر ، أو خبر من الأخبار ، فيرسلون فيه بريداً إلى العراق وظلت هذه الظاهرة – الاحتفاء بالعلماء – ميزة مطردة مع ازدهار الملك .

فلما كان العباسيون – نهجوا نهج الأمويين بعد أن رأوا آثارهم فى الناس ، وتحبَّبوا إلى العلماء ، والفقهاء ، والرواة . فكان الرشيد يجلس الكسائى ، ومحمد بن الحسن على كرسيين بجانبه ، ويأمرهما ألاّ ينزعجا لنهضته تكريماً للعلم والعلماء ، كما اتخذ راوية لأشعار المُحْدَثين هو محمد الراوية المعروف بالبيدق . وهى وظيفة غير وظيفة صاحبنا الأصمعى الراوية .

كان محمد الراوية قصيرًا ، فلقب بالبيدق لقصره ، ولكنه كان حسن الوجه ، حسن الأداء والإنشاد ، يطرب كما يطرب الغناء ، ولعل فى أخباره التى نذكر طرفاً منها ما يكشف عن طبيعة هذه الوظيفة التى استحدثها الرشيد ، أو استحدثتها الرواية :

يقول البيدق : دخلت على الرشيد ، وعنده الفضل بن الربيع ، ويزيد بن مزيد فأنشدته قصيدة النميرى العينية :

أى امرئ باتَ من هارون فى سخَط فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إن المكارَم والمعروفَ أوديـةٌ أحلك الله منها حيث يتسع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه وما وضعت من الأقوام متّضعِ
نفسي فداؤك والأبطال معلمـة يوم الوغى ، والمنايا صابها فزع

فبعث إليه بسبعة آلاف دينار ، فلم يعطنى منها ما يرضينى ، فأغضبنى وأحفظنى ، فأنشدت هارون قوله :

ساد من الناس راتعٌ هامل يعللون النفس بالباطل

فلما بلغت إلى قوله :

إلا مساعير يغضبون لها بسلة البيض ، والقنا الذابل

قال : أراه يُحرِّضُ علىّ ، ابعثوا إليه من يجىء برأسه فكلمه فيه الفضل بن الربيع ، فلم يغن كلامه شيئاً ، وتوجّه إليه الرسول فوافاه فى اليوم الذى مات فيه ! (١) .

ويقول فى خبر آخر . قال لى الرشيد يومًا : أنشدنى مرثية مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة التى يقول فيها :

كأن الشمس يوم أصيب معنٌ من الإظلام ملبسة جلالا
هو الجبل الذى كانت معدٌّ تَهدّ من العدو به الجبالا
أقمنا بالیمامة بعد معـن مقاماً لا نريد به زيـالا
وقلنا : أين نذهب بعد معن وقد ذهب النوّال فلا نوالا

قال : فأنشدته إياها ؛ ثم قال : أنشدنى قصيدة أبى موسى التيمى فى مرثية يزيد بن مزيد فهى والله أحب إلى من هذه فأنشدته :

أحـق أنه أودى يـزيد تَبيَّنْ أيهـا الناعى المشيد

إلى آخر القصيدة (٢) .

ويبدو أنه كان من مهام هذا الراوية أن تقدم إليه القصائد ، فيختار منها ما يجده مناسبًا ، ويلقيه أمام الرشيد ، فإذا أصابت هواه أرسل بجائزته إلى الشاعر وهو فى منزله . وكان الراوية يفيد من صاحب الجائزة على أنه السبب والوسيلة فيها ، وإلاّ غضب على الشاعر وتلمّس سقَطه فيما ينتجه بعد ذلك .

---

(١) الأغانى ١٢ : ١٩ ط التقدم .
(٢) الأغانى ١٨ : ١١٦ ط التقدم .

ويشير الخبر الذى أوردناه عن النميرى إلى بعض ملابسات هذه المهمة ، ولم تقتصر مهمة الراوية عند هذا الحد ، بل كان عليه أن يحفظ عيون القصائد ، فقد يهفو الخليفة إلى سماع شىء منها حين لا يتيسر وجود الشاعر الذى يريده ، وقد يستريح الخليفة إلى سماع القصيدة بإلقاء هذا الراوية الذى أُعِد وهيِّئ لذلك والذى يتمتع بحسن الأداء ، وحلاوة الإنشاد .

فهل كانت رواية الشعر على هذه الصورة – أو ما يقاربها – هى السبيل إلى دخول الأصمعى بلاط العباسيين ؟ ربما ؛ فالأصمعى عالم اللغة والغريب فى البصرة من غير منازع ، وما كان له أن يدخل حاشية العباسيين إلا على هذه الصفة ، أما ذلك الخبر الطويل الذى أورده ابن عبد ربه فى العقد ، فنسجله بخذافيره ، ونخضعه للمناقشة العلمية ولا سيما أن الدكتور الجومرد صاحب كتاب (الأصمعى : تاريخه وآثاره) قد أدخله فى حسابه ، وجعله مقدمة أوحى بها الفضل بن الربيع للأصمعى ؛ ليأخذ مكانه فى بغداد قبل أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وقد حضر الاثنان ليختار الرشيد أحدهما ، ولم ندر سند الجومرد فى هذا إلا أن يكون اجتهاد خيال اعتمد فيه على ما تصوَّره من عروبة الأصمعى وشعوبية أبى عبيدة ، فيكون الأصمعى بهذا أقرب إلى الفضل بن الربيع ، وأقوى سنداً له من أبى عبيدة الذى قد يميل إلى البرامكة لاتفاقهما فى الشعوبية ، ولكن تحليل الخبر ودراسته دراسة علمية ينفى ذلك تماماً :

يقول ابن عبد ربه على لسان الأصمعى :

(تصرفت بى الأسباب إلى باب الرشيد ، مؤملاً للظفر بما كان فى الهمة دفيناً ، أترقّب به طالعَ سعدٍ يكون على الدّرك مُعيناً ، فاتصل بى ذلك إلى أن كنت للحرس مُؤنِساً بما استعملتُ به مودّتهم ، فكنتُ كالضَّيف عند أهل الميرَة ، فطرقتهم متوجّهاً بإتحافى ، وطاولتنى الغايات بما كدت أصير به إلى ملالة ، غير أنى لم أزل مُحْيِياً للأمل بمذاكرته عند اعتراض الفترة ، وقلت فى ذلك :

وأى فتى أعير ثبات قلب ... وساع ما تضيق به المعانى
تجاذبه المواهب عن إبـاء ... ألا بل لا تواتيه الأمانى
فربَّ معرّس للناس أجلى ... عن الدرك الحميد لدى الرهان
وأى فتى أناف على سمو ... من الهمات ملتهب الجنـان
بغير توسع فى الصدر ماض ... على العزمات كالعضب اليمانى

فلم نبعد أن خرج علينا خادم فى ليلة نثرت السعادة والتوفيق : وذلك أن الرشيد تربع

الأُرَق بين عينيه فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟ فقلت : الله أكبر ! رب قَيْدٍ مضيّق قد فَكّه التيسير للإنعام ، أنا صاحبك إن كان صاحبك من طلب فأدمن ، أو حفظ فأتقن ، فأخذ بيدى ثم قال : أدخل ، إن يختم الله لك بالإحسان لديه والتصويب فلعلها تكون ليلة تعوض صاحبها الغنى قلت : بشّرك الله بالخير .

قال : فدخلت فواجهت الرشيد فى البهو جالساً كأنما ركب البدر فوق أزراره جمالاً والفضل بن يحيى إلى جانبه ، والشمع يحرق به على قضب المنابر . والخدم فوق فرشه وقوف ، فوقف بى الخادم حيث يسمع تسليمى ، ثم قال : سَلِّمْ ، فسلمتُ ، فَرَدَّ ثم قال : يُنَحَّى قليلاً ، ليسكن روعه إن وجد للروعة حسّا ، فقعدت حتى سكن جأشى قليلاً ، ثم أقدمت فقلت : يا أمير المؤمنين : إضاءةُ كرمك وبهاءُ مجدك مجيران لمن نظر إليك من اعتراض أذيّة له ، أيسألنى أمير المؤمنين فأجيب . أم أبتدئ فأصيب بيمن أمير المؤمنين وفضله

قال : فتبسم الفضل إلىّ ثم قال :

ما أحسن ما استدعى الاختبار ، واستهل به المفاتحة وأجدر به أن يكون محسناً ثم قال الفضل : والله يا أمير المؤمنين لقد تقدّم مبرّزاً محْسناً فى استشهاده على براءته من الحيرة ، وأرجو أن يكون ممتعاً .

قال : أرجو . ثم قال : ادن ، فدنوت ، فقال : أشاعر أم راوية ؟

قلت : راوية يا أمير المؤمنين .

قال : لمن ؟

قلت : لذى جد وهزل بعد أن يكون محسناً

قال : والله ما رأيت أوعى لعلم ، ولا أخبر بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك . ولئن صرت حامداً أثرك لتعرفنّ الإفضال متوجهاً إليك سريعاً .

قلت :أنا على الميدان يا أمير المؤمنين ، فيطلق أمير المؤمنين من عقالى مجيباً فيما أحبه .

قال : « لقد أنصف القارَة من راماها » ، ما معنى المثل فى هذه الكلمة بديًا ؟

قلت : ذكرت العرب يا أمير المؤمنين أن التبابعة كانت لهم رماة .

لا تقع سهامهم فى غير الحدق وكانت تكون فى الموكب الذى يكون فيه الملك على الجياد البلق ، بأيديهم الأسورة ، وفى أعناقهم الأطواق تسميهم العرب القارة ، فخرج من موكب الصغد فارس معلم بعذبات سود فى قلنسوته قد وضع نُشّابَتَه فى الوتر ثم صاح : أين

رماة الحرب ؟ قالوا : قد أنصف القارة من راماها ، والملك أبو حسان إذ ذاك المضاف إليه .

قال : أحسنت ، أرويت للعجاج ورؤبة شيئاً ؟

قلت : هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافى ، وإن غابا عنك بالأشخاص ، فمد يده ، فأخرج من تحت فراشه رقعة ينظر فيها ، ثم

قال : أسمعنى « طارق همّ طرقا »[٣] .

فمضيتُ فيها مُضِيَّ الجواد فى سنن ميدانه ، تَهدرُ بها أشداق حتى إذا صرت إلى امتداح بنى أمية ثنيت عنان اللسان إلى امتداحه المنصور فى قوله :

قلت لزير لم تصله مريمة

قال : أعن حيرة أم عن عمد ؟

قلت : بل عن عمد تركت كذبه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجد .

قال الفضل : أحسنت بارك الله فيك ، مثلك يُؤمَلُ لهذا الموقف .

قال الرشيد : أرجع إلى أول هذا الشعر ، فأخذت من أوله حتى صرت إلى صفة الجمل ، فأطلت .

فقال الفضل : مالك تُضَيِّقُ علينا كل ما اتسع لنا من مساعدة السهر فى ليلتنا هذه بذكر جمل أجرب ، صِرْ إلى امتداح المنصور حتى تأتىَ على آخره .

فقال الرشيد : اسكت ! هى التى أخرجتك من دارك ، وأزعجتك من قرارك وسلبتك تاج ملكك ، ثم ماتت فعُمِلَتْ جلودها سياطاً يضرب بها قومك ضرب العبيد ثم قهقه ، ثم قال : لا تدع والتعرض لما تكره .

قال الفضل : لقد عوقبت على غير ذنب ، والحمد لله

قال الرشيد : أخطأت فى كلامك يرحمك الله ، لو قلت : واستغفر الله ، قلت صواباً ، وإنما يحمد الله على النعم ، ثم صرف وجهه إلىّ وقال : ما أحسن ما أديت فى قدر ما سئلت ، أسمعنى كلمة عدى بن الرّقاع فى الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

عرف الديارَ تَوَهُّماً فاعتادها

فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب ، لمَ لا تأمره أن يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ؟

---

(٣) قصيدة لرؤبة بن العجاج .

قال : ويحك ... ! إنه أدبٌ ما يخطب أبكاره بالنسب . وقلما يعتاض عن مثله ولأنْ أسمعُ الشعر ممن يخبره وشغلته العنايةُ به عمرَه أحبُّ إليَّ من أن تشافهني به الرسوم . وللمتدح بهذا الشعر حركات ترد عليك فلا تصدر من غير انتفاع بها ، ولا أكون أول مسن طريقة ذكر لم تؤدها الرواية

قال الفضل : قد والله يا أمير المؤمنين شاركتك في الشوق . وأعنتك على التوق . ثم التفتَ إليَّ الفضل فقال : احْدُ بنا ليلتك منشداً . هذا سيدى أمير المؤمنين قد أصغى إليك مستمعاً . فَمُرْ ويحك في عنان الإنشاد . فهي ليلة دهرك لن تنصرفَ إلا غانماً .

قال الرشيد : أما إذا قطعت على . فأحلف لتشركني في الجزاء . فما كان لي في هذا شيء لم تقاسمْنيه .

قال الفضل : قد والله يا أمير المؤمنين وطنت نفسي على ذلك متقدماً فلا تجعلنَّه وعيداً .

قال الرشيد : ولا أجعله وعيداً

قال الأصمعي : الآن ألبسُ رداءَ التِّيه على العرب كلها . إني أرى الخليفة والوزير . وهما يتناظران في المواهب لي . فمررت في سنن الإنشاد حتى إذا بلغت إلى قوله :

تُزْجِي أغَنَّ كأنَّ إبرةَ روقه قلمٌ أصابَ من الدواةِ مدادها

فاستوى جالساً ثم قال : أتحفظ في هذا شيئاً ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال الفرزدق قال عدي :

تزجي أغَنَّ كأنَّ إبـرة روقــه

قلت لجرير : أي شيء تراه يناسب هذا تشبيهاً ؟ فقال جرير :

قلم أصـاب من الدواة مدادها

فقلت لجرير : ويحك ! لكأن سمعك مجبوء في فؤاده فقال جرير : أسكت . شغلني سبُّك عن جيّد الكلام .

ثم قال الرشيد : مر في إنشادك فمضيتُ حتى بلغت إلى قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاَّكَها من أمة إصلاحَها ورشادها

قال الفضل : كذب وما برّ

قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هذا البيت

قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال : لاحول ولا قوة إلا بالله

قال : مُرْ فى إنشادك ، فمضيتُ حتى بلغت إلى قوله :

تأتيه أسلابُ الأعزّة عنوةً عصباً ، وتجمع للحروب عتادَها

قال الرشيد : لقد وصفه بحزمٍ وعزمٍ لا يعرض بينهما وكْل ولااستذلال ، قال : فماذا صنع ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله !

قال : أحسبك وهمت

قلت : يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية ، فليردّنى أمير المؤمنين إلى الصواب .

قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكنى أعلم أن الرجل لم يكن يخطئ فى مثل هذا ، قال الأصمعى : وهو والله الصواب ، ثم قال : مُرْ فى إنشادك ، فمضيتُ حتى بلغت إلى قوله :

وعلمت حتى لا أسائل واحداً عن حرف واحدة لكى أزدادها

قال : وكان من خبرهم ماذا ؟

قلت : ذكرت الرواة أن جريرًا لما أنشد عدِيٌّ هذا البيت قال : بلى والله وعشر مئين ! قال عدى : وقر فى سمعك أثقل من الرصاص .

قال الرشيد : والله إنه لنقى الكلام فى مدحه وتشبيهه

قال الفضل : يا أمير المؤمنين لا يحسن عدى أن يقول :

شمش العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

قال الرشيد : بلى ، قد أحسن إذ يقول فى الوليد :

للحمد فيه مذاهب ما تنتهى ومكارم يعلون كل مكارم

ثم التفت إلىّ وقال : ما حفظتَ له فى هذا الشعر شيئاً حين قال :

أطفأت نيران الحروب وأوقدت نار قدحت براحتيك زنادها

قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه حك يميناً بشمال مقتدحاً بذلك ثم

قال : الحمد لله على هبة الإنعام ، ثم قال الرشيد : أرويت لذى الرمة شيئاً

قلت : الأكثر يا أمير المؤمنين ، قال : والله إنى لا أسألك سؤال امتحان ، وماكان هذا عليك ، ولكنى أجعله سبباً للمذاكرة ، فإن وقع عن عرفانك شىء فلا ضيق عليك بذلك عندى ، فماذا أراد بقوله :

ممر أُمِرَّت متنه أسدية يمانية حلالة بالمصانع

قلت : وصف يا أمير المؤمنين حماراً وحشياً أسمنه بقلُ روضة تشابكت فروعه ، من قطر سحابة كانت فى نوء الأسد ، ثم فى الذراع منه .

قال : أصبت . أفترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم إذ هو شىء قلما يستخرج بغير السبب الذى رويت لهم أصوله ، أو أدتهم إليه الأوهام والظنون فالله أعلم بذلك .

قلت : يا أمير المؤمنين . هذا كثير فى كلامهم ، ولا أحسبه إلا عن أثر ألفى إليهم .

قال : قلما أجد الأشياء لا تثيرها إلا الفكر فى القلوب فإن ذهبت إلى هبة الله ذكرهم بها ذهبت إلى ما أدتهم إليه الأوهام . ثم

قال : أرويت للشماخ شيئاً ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين

قال : يعجبنى منه قوله :

إذا رد من ثنى الزِّمام ثنت له جراناً كخوطِ الخيزران المُمَوَّج

قلت : يا أمير المؤمنين هى عروس كلامه

قال : فأيها الحسن الآن من كلامه ؟

قلت : الرائية ، وأنشدته أبياتاً منها

قال : أمسك ، ثم قال : استغفر الله ثلاثاً ، أرح قليلا واجلس ، فقد أمتعت منشداً ، ووجدناك محسناً فى أدبك ، معبراً عن سرائر حفظك ، ثم التفت إلى الفضل فقال : لكلام هؤلاء ومن تقدم من الشعراء ديباج الكلام الخسروانى يزيد على القدم جدّةً وحُسْناً ، فإذا جاءك الكلام المُزَيَّن بالبديع جاءك الحرير الصينى المذهّب يبقى على المحادثة فى أفواه الرواة . فإذا كان له رونق صواب وعته الأسماع ، ولذ فى القلوب ، ولكن فى الأقل منه ؛ ثم قال : يعجبنى مثل قول مسلم فى أبيك وأخيك الذى افتتحه بمخاطبة حليلته مفتخراً عليها بطول السرى فى اكتساب المغانم حيث قال :

أجدك هل تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك ينشرُ

صبرت لها حتى تجلّت بغرّة كغرة يحيى حين يذكر جعفر

أفرأيت ألطف ما جعلها معدناً لكمال الصفات ومحاسنها ؛ ثم التفت إلىّ فقال : أجد ملالةً ، ولعلّ أبا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيف فى ليلتنا هذه ، فأقم معه مسامراً

له ثم نهض ..... ثم قال : يا غلام ، علىّ بصالح الخادم فقال : يؤمر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم فى ليلته هذه . قال الفضل : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد غيره – لدعوت لك بمثل ما أمر به أمير المؤمنين ، فدعا له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين إلا ألف درهم .... قال الأصمعى : فما صليت الظهر إلا وفى منزلى تسعة وخمسون ألف درهم [٤] .

ذكر هذا الخبر – ابن عبد ربه – صاحب كتاب العقد الفريد ، عن القاسم بن محمد السلامى ، عن حماد بن بشر الأطروش ، عن يحيى بن سعيد ، ولقد جاهدنا فى تتبع هؤلاء الرواة فى سياق تحقيقنا للنص ، وتحققنا من معاصرة يحيى بن سعيد للأصمعى على أنه فى غالب الأمر يحيى بن سعيد العقيلى حيث ثبت أنه كان معاصرًا للأصمعى فى حكاية له مع العتابى ذكرها أبو الفرج فى الأغانى [٥] .

أما حماد بن بشر الأطروش ، والقاسم بن محمد السلامى فلم نستطع الوقوف على شىء من أمرهما نفيد منه التتبع التاريخى أو النقلى لهذه الرواية ، وربما كانا من الرواة الذين لم يحظوا كثيرًا باهتمام المؤرخين ، مما جعلنا نعيد قراءة النص نقيس لغته وأسلوبه وطريقة سرده على النحو الذى كان غالباً فى عصره ، وكلما تأملنا فى الخبر مِلْنا إلى الشك فيه : فلم يكن من المألوف أن ترى مثل هذه الأخبار الطوال إلا فى موضوعات تتعلق بسلامة الدولة ، أو فى وصف غزوة من الغزوات ، أو الحكاية عن قائد أو ثائر خرج على أمر السلطان ، وما يتبع ذلك من انتصاره أو فشله أو اختفائه أو توبته ، وما يدور حول ذلك من قصص ، أما فى مثل هذا الخبر الذى لا يتجاوز مدلوله – ذهاب راوية لقصر الخلافة ، واستحسان الخليفة له – فلم يكن من المألوف أن يبنى على هذا الاستطراد .

ومن ناحية أخرى فإن أسلوب الخبر ، والتعمل فى صياغته – يدل على أنه أُعدّ إعدادًا لغرض سياسى ، يستهدف الإشادة بالأمويين ، ومن حَبْكَةِ التخريج أن تخرج هذه الإشادة من بلاط العباسيين !

يقول الخبر : إن الرشيد أرق ليلته ، فأرسل فى طلب من يعينه على السهر ، فأى عون هذا

---

(٤) العقد الفريد ٥ : ٣٠٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ .

(٥) الأغانى ١٢ : ٨ ط دار الكتب .

إذا كان الخبر كله أو جله يشيد بمآثر بنى أمية وإذا عرفنا كراهية العباسيين لأسلافهم من بنى أمية حتى كانوا يكافئون من يسبهم أو يقلّل من شأنهم – استبعدنا أن تكون هذه الإشادة بهم فى قصر الرشيد ، وأن يكون محور هذه الإشادة هو الرشيد نفسه ، يحاور الأصمعى ويستعيده ، حتى يتأفف الفضل بن يحيى من كثرة ما سمع من عبارات الثناء والمديح فى بنى أمية ، والخليفة مع هذا يهش ويطرب ، ويعينه هذا الطرب على الخروج من الضيق والأرق !

أما تعليل هذا المسلك من الرشيد بأنه الرغبة فى الأدب (لأنه أدب ما يخطب أبكاره بالنسب وقلما يعتاض عن مثله) على حد تعبير الرشيد ، وأنه بعمله هذا يضع أصولاً أمينة فى نقل الرواية - فأمر يصعب تصديقه ، وأمام الرشيد من الأدباء والشعراء والرواة من يعتبرون أفذاذًا فى هذه الفنون إلا أن يكون الرشيد قد نسى عباسيته والتعصب لها ، وأعد نفسه لسماع النقد فيه وفى آبائه ، والإشادة بخصومه ، أو قبول كلمة الحق ولو كانت على حساب هذه العصبية فهل كان هذا من طباع الرشيد ؟

الأخبار لا تشير إلى ذلك ، بل كان كجميع ملوك الدولتين – الأموية والعباسية ، باستثناء الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز – يوسعون للرواة والشعراء أماكنهم فى مجالسهم ، كلفين أشد الكلف بسماع المديح فى ذواتهم وفى آبائهم ، مفرطين فى عطاياهم بقدر إفراط الشعراء فى مدحهم ، بل كان الرشيد يضيق أحياناً بكلمة الحق إذا خالفت هواه ، وقد يخالف عهدًا سبق أن قطعه على نفسه[٦] .

والرشيد فى هذا كغيره من الخلفاء والملوك والأمراء فى كل عصر وفى كل دولة ، يكره أن يكون المديح والإشادة فى أعدائه ، وكان عداء العباسيين لأسلافهم من الأمويين من أكبر الأسباب الداعية إلى التنكيل بهم ، وبمن يلوذ بهم أو يذكرهم بالقليل من المديح .

يقول أبو الفرج الأصفهانى فى هذا السياق ، ومع الرشيد نفسه قصة قينة تعرضت للقتل بسبب بيت غنته فى مدح الأمويين لولا أن تداركت ، فحرّفت البيت ، فصار فى هجاء الأمويين ، وزادت أن جعلتهم معدناً للنفاق ، ولولا تدخل يحيى بن خالد البرمكى بحكمته ،

---

(٦) ذكر الطبرى أن الرشيد دعا يحيى بن عبد الله بن حسن بن على بن أبى طالب الذى كان قد ظهر بالديلم ، إلى أن أمّنه أماناً بخطه . وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم ، دعا به الرشيد بعد ذلك ... وأحضر الأمان الذى كان أعطاه يحيى فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول فى هذا الأمان ؟ قال : هو صحيح ، فحاجّة فى ذلك الرشيد ، واحتملها على محمد بن الحسن ، ثم سأل أبا البخترى فقال : هو منتقض من وجه كذا وكذا ، فقال الرشيد : أنت قاضى القضاة وأنت أعلم بذلك ومزق الأمان . تاريخ الطبرى ١٠ : ٥٧ .

واحتياله للأمر ما سكن قلب القينة من الرعب .

يقول أبو الفرج : اعترض هارون الرشيد قينة ، فغنت :

ما نقموا من بنى أمية إلاّ أنهم يحلمون إن غضبوا

فلما ابتدأت تغير وجه الرشيد ، وعلمت أنها قد غلطت ، وأنها إن مرّتْ فيه قُتلت ، فحرَّفت البيت وغنّت :

ما نقموا من بنى أميّة إلاّ أنهم يجهلون إن غضبوا
وأنهم معدن النفاق فما تفسد إلا عليهم العرب

فقال الرشيد ليحيى بن خالد : أسمعت يا أبا على ؟ ، فقال : يا أمير المؤمنين تبتاع ، وتسنى لها الجائزة ، ويعجل لها الإذن ، ليسكن قلبها [٧] .

فأين هذا وما حفل به الخبر السابق من مدح للأمويين ؟ والأخبار كثيرة متداولة إذا أردنا أن نُدلِّلَ على عداوة الرشيد لأسلافه من بنى أمية .

وفى الخبر شىء آخر هو المبالغة والإغراق حتى يتناظر الرشيد ووزيره ويسهبا فى تقريظ الأصمعى ، ويطلب الخليفة من الفضل ألا يقاطعه ، ويلوّح له بمشاركته فى الجزاء ؛ إذ لم ينفرد وحده بهذه المتعة حتى يقول الأصمعى : (الآن ألبس رداء التيه على العرب كلها !) .

وفى معاتبة الرشيد للفضل تجده تصدّى لمهاجمة الفرس عند ذكر الجمل بقوله : (اسكت ! هى التى أخرجتك من دارك ، وأزعجتك من قرارك ، وسلبتك تاج ملكك ، ثم ماتت فعملت من جلودها أسياطاً يضرب بها قومك ضرب العبيد ... إلخ) وهذا كلام تستوقفنى شدّته إذا نُسِبَ للرشيد ، والرشيد يومئذ قد اتخذ يحيى بن خالد البرمكى والداً يقول له : يا أبت ؛ واتخذ الفضل وجعفر أخوين له ، وهو والفضل رضيعا ثدى أمٍّ واحدة ، وكان الوزيران يؤدبان ولدى الرشيد – الأمين والمأمون – والبرامكة يومئذ فى أوج مجدهم وأقرب الناس إلى قلب الرشيد وأما مهاجمته للفرس على النحو الذى ظهر فى الخبر فهو أقرب إلى العقوق ، يُعيِّرهم بزوال ملكهم ، وخروجهم من ديارهم ، وضربهم بالسياط ضرب العبيد وهو يعلم أن دولة العباسيين قامت على أكتافهم .

وفوق هذا – فالأصمعى كرجل من كبار رجال البصرة – ما كان ليذهب إلى بغداد على هذه الصورة : فقد كان رجال البصرة يجدون علمهم أسمى من السلطان ، وكانت هذه الروح

(٧) الأغانى ٥ : ٨٦ ط دار الكتب .

فيهم منذ بدأت الحركة الفكرية فى البصرة ، ولقد كان الحسن البصرى يغضب أشد الغضب حين يجد القُرَّاء يقفون على باب ابن هبيرة ، والخليل بن أحمد يرسل إليه سليمان بن على (الأمير العباسى) وكان والياً على الأهواز يرجو منه الشخوص إليه لتأديب ولده ، فيخرج للرسول خبزاً يا بساً ويقول : ما عندى غيره ! وما دمت أجده فلا حاجة لى فى سليمان[٨] .

وبعد فإنى أسيل إلى القول بأن واضع هذا الخبر أموى الهوى ، وأن تسجيله على هذه الصورة ، وإلحاقه برواية الأصمعى الذى كان معروفاً برياسته فى الرواية – لم يكن إلا وسيلة لتخليد المديح فى بنى أمية والاحتيال بذلك على أذهان الناس بهذه الحبكة القصصية ، وأن يدير دفتها كبير العباسيين هارون الرشيد .

ولا يغرب عن بالك ، أن ابن عبد ربه كان يعيش فى دولة بنى أمية الجديدة فى الأندلس ، ورأيه فيهم يتفق مع ما جاء فى الخبر فهو أموى الهوى أندلسى الدار ، لم يرحل إلى المشرق ، وإنما استمدّ علمه من رجال الأندلس من أمثال الخشنى ، وابن وضاح ؛ كما اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، وظهر ذلك واضحاً فى ترتيب كتابه (العقد الفريد) ، كما أفاد مما كتبه القالى فى أماليه ، وهذان الكتابان لم يتناولا الخبر ، أما عن أمويته فالمعروف عن ابن عبد ربه أنه لازم الأمير عبد الله الذى تولى عرش قرطبة سنة ٢٧٥ هـ ، ونادمه ، ومدحه ، وذكر ، غزواته فى قصيدة طويلة .

والخبر الذى نستريح إليه ، ونبدأ به صلة الأصمعى بالرشيد هو الذى ذكره كل من السيرافى ، وابن خلكان : فقد أشارا إلى رغبة الرشيد فى استقدام عالم من علماء العربية ورواياتها ، فذكروا له أبا عبيدة معمر بن المثنى ، وأبا سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، فأشْخِصا إليه ، واستُقبلا فى بغداد استقبالاً يليق بهما ، وأعَدّ لهما الفضل بن يحيى مأدبة فاخرة يشير إليها أبو عبيدة ، فيقول :

(لما حُملت إلى الرشيد – أنا والأصمعى – تغدينا عند الفضل بن يحيى فجاءونا بأطعمة والله ما سمعت بها قط ، وإذا بين يدى الأصمعى سمك كنعد وكامخ شبت ، فقال لى : كُلْ من هذا يا أبا عبيدة ؛ فإنه كامخ طيب ... ![٩] فلما انتهت هذه المقدمات حُملا إلى الرشيد ،

---

(٨) أخبار النحويين البصريين ٣٠ ، ٣١ ط الحلبى .

(٩) أخبار النحويين البصريين ٥٤ .

فاختار الأصمعى لمجالسته : لأنه كان أحسن من أبى عبيدة منشأ ، وأصلح لمنادمة الملوك[١٠] .

والذين يعرفون أبا عبيدة يذكرون من أخباره ما يتفق مع هذا الوصف :

كان أبعد ما يكون عن السماحة ولين الجانب ، حاد البادرة لا يتلطف فى قول ، وكان يكره العرب ، ويبحث فى مثالبها ولقد تصدى له مَنْ وَاجَهه بالعنف أيضًا قائلاً له : (تقع فى الناس فمن أبوك ؟)[١١] ، ولم يكن أحد بالبصرة إلا وهو يداجى أبا عبيدة ويتقيه على عرضه[١٢] .

فإذا أضفنا إلى هذا أنه كان بالرغم من جمعه للعلم ، يخطئ إذا قرأ القرآن نظرا ، كما كان لا يحسن أن يقيم البيت من الشعر – رأينا أن أبا عبيدة لا يصلح حقيقة لمنادمة الرشيد الذى اكتفى بأن أخرج له صلة ، ثم صرفه[١٣] .

ويبدو أن حضور الأصمعى وأبى عبيدة إلى بغداد كان أمرًا خطيراً ، وحادثاً له حديث أثار تعليقات الناس ، وإبداء آرائهم فى الرجلين : قيل لأبى نواس : قد بعثوا لأبى عبيدة والأصمعى ليجمع بينهما ، فقال : أما أبو عبيدة ، فإنهم إن أمكنوه من سِفْره قرأ عليهم أساطيرَ الأولين ، وأما الأصمعى فبلبل فى قفص يطربهم بنغماته ![١٤] .

اتصل الأصمعى بالرشيد ، وأصبح من سُمَّاره ، ووجد فى هذه النقلة إرضاء لمطامعه المادّية ، والأدبية أيضاً ، ذلك أن بغداد قد زهت بعلمائها ، وبمن وفد إليها من رجال البصرة والكوفة ، وقد أقيمت فيها المناظرات بين العلماء ، وأحسب أن مجالس الرشيد قد أمدت الأصمعى بالكثير من أسباب الأدب ، واللفظ المتخير ، والعبارات المنتخبة :

كان الأصمعى فى مجلس الرشيد يومًا ، وأُتِىَ بعبد الملك بن صالح يرفل فى قيوده ، فأخذ الرشيد يغلظ له فى القول ، ويتوعد ، فقال له : (اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، وراقبه فى رعاياك التى استرعاك ، فقد سهلت لك والله الجسور ، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور ، وكنت كما قال أخو جعفر بن كلاب :

مقام ضيق فرَّجْتَه بلسانٍ أو بيانٍ أو جدل

---

(١٠) ، (١١) ، (١٢) إنباه الرواة ٢ : ٢٨١ .

(١٣) وفيات الأعيان ٤ : ٤٢٣ .

(١٤) عيون الأخبار ٢ : ١٣٠ .

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى أو رحل

فأراد يحيى بن خالد أن يضع من مقدار عبد الملك عند الرشيد فقال له : يا عبد الملك : بلغنى أنك حقود ، فقال : أصلح الله الوزير إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى فإنهما لباقيان فى قلبى ، فالتفت الرشيد إلى الأصمعى فقال : يا أصمعى ، حررها ، والله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك[١٥] .

هذه صورة من الصور الكثيرة التى تفيض بها مجالس الخلفاء عادة : اعتذار رقيق ، أو شفاعة مهذبة ، أو عرض جميل ، أو شعر منتقىً إلى غير ذلك من فنون القول . والأصمعى قد تزود من العلم ، وأسعفته حافظته على استظهار الشعر وغريبه ، واللغة ودقائقها ، وعرف القراءات ، وسمع الحديث ، وهو فوق كل هذا صاحب عبارة جميلة : يذكر ذلك الجاحظ فيقول : (أعذب من تحدث وحكى) وقال فيه أبو نواس (بلبل يطربهم بنغماته) ، ورجل هذا شأنه لن يقتصر عزمه على ما ينتظره من نفع مادى ، ولكنه اتصل بالعلماء فى هذه المجالس ، وخاض فيما خاضوا فيه ، وبادلهم المعرفة ، فأعطاهم إن شاء من علمه ، وأخذ حتما مما عندهم ، فحق لثعلب أن يقول : (قدم الأصمعى بغداد ، وأقام فيها مدة ، ثم خرج منها يوم خرج وهو أعلم منه حيث قدم بأضعاف مضاعفة)[١٦] .

وكان على الأصمعى أن يَمُرّ فى اختبارات دقيقة فى مجال آخر غير مجال الدراسة والأدب ، وهى قواعد الجلوس إلى السلطان ، واختيار الوقت المناسب الذى يبدأ فيه حديثه ، واختيار اللفظ المناسب ، وما يجب أن يقال أمام الناس ، وما يجب أن يؤجل لحين الخلوة ، إلى غير ذلك .

ومع ما قيل عنه من عذوبة ألفاظه ، وخفة روحه – فلقد كان أول أمره أشبه بالبدوى الخشن يحتاج إلى التوجيه والصقل ، وتعرّض بسبب هذه الخشونة إلى سماع التوجيه الرقيق من الرشيد تارة ، والخشن من رجال المجلس تارة أخرى :

كان فيه اندفاع العالم المتحمس الذى يحرص على السبق فى الإجابة ، فتخرج الكلمات أحياناً فَجّة على الفطرة : سأله الرشيد يوماً : من أمّ فلان ؟ (لإنسان من العرب) فقال الأصمعى : (على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين) . فقال الفضل بن يحيى : أسقط الله أنفك

---

(١٥) مروج الذهب ٦ : ٣٠٤ ط باريس .

(١٦) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧ .

وعينيك ، أهكذا تخاطب الخلفاء ! [١٧] .

ودخل على الرشيد بعد غيبة طويلة فقال له : يا أصمعى ، كيف كنت بعدى ؟ ، فقال : ما لاقتنى بعدك أرض فتبسم الرشيد ، ولما خرج الناس قال له : ما معنى قولك ما لاقتنى أرض ؟ فقال : ما استقرّت بى أرض كما يقال : فلان لا يليق شيئاً : أى لا يستقر معه شىء .

فقال : هذا حسن ، ولكن لا ينبغى أن تكلمنى بين يدى الناس إلا بما أفهمه ، فإذا خلوت فعلِّمنى ، فإنه يقبح بالسلطان ألّا يكون عالمًا : إما أن أسكت ، فيعلم أنى لا أفهم إذ لم أجب ، وإما أن أجيب بغير الجواب ، فيعلم من حولى أنى لم أفهم ما قلت قال الأصمعى : فعلمنى أكثر مما علمته [١٨] .

ثم يتصل سبب الأصمعى بالرشيد بعد ذلك ، وتتوطد هذه الصلة ، ويصبح من البارزين فى مجلس العلم ، وهو فى هذا المجلس صاحب الشعر والخبر والنوادر ، وإذ كان للرشيد مستشارون فى شتى شئون الدولة فلقد كان الأصمعى أستاذًا مُبرَّزًا فى الشعر ومعانيه : يسأله الرشيد عن البيت والقصيدة ، وعن مناسبتها ، وما يتصل بذلك من أقوال الأعراب ونوادرهم ، فى جدّ إن أراد الخليفة علماً ومعرفةً ، وفى هزل إن جلس للترفيه والترويح ، ومن قبيل ما يروى فى هذا قول الأصمعى :

دخلت على هارون الرشيد وبين يديه بدرة ، فقال : يا أصمعى ، إن حدثتنى بحديث فى العَجْز فأضحكتنى وهبت لك هذه البدرة قال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينا أنا فى صحارى الأعراب فى يوم شديد البرد والريح – إذ أنا بأعرابى قاعد على أجمة ، قد احتملت الريح كساءه فألقته على الأجمة ، وهو عريان ، فقلت له يا أعرابى : ما أجلسك ها هنا على هذه الحال ؟ ، فقال : جارية واعدتها يقال لها سلمى ، أنا منتظر لها ، فقلت : وما يمنعك من أخذ كسائك ؟ ، قال : العجز يوقفنى عن أخذه قلت له : فهل قلت فى سلمى شيئا ؟ قال : نعم ؛ قلت : أسمعنى لله أبوك ! قال : لا أسمعك حتى تأخذه وتلقيه علىّ ؛ فأخذته ، وألقيته عليه ، فأنشأ يقول :

لعل الله أن يأتى بسلمى فيبسطها ويلقينى عليها
ويأتى بعد ذاك سحاب مزن يطهرنا ولا نسعى إليها

---

(١٧) الوزراء والكتاب ١٨٩ .

(١٨) أخبار النحويين البصريين ٢٤ ، وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٦ .

فاستضحك هارون حتى استلقى على ظهره ، وقال : خذ البدرة لابورك لك فيها[١٩] .

وربما أراد الرشيد أن يحدد اختصاصه بالشعر ، ويجعله وقفًا عليه ، فكان ينتهز المناسبة ؛ ليثنى عليه أمام غيره من رجال الأدب ؛ حتى يتركوا له هذا الجانب ؛ نلمح هذا فى كثير من المحاورات والمناظرات التى دارت فى مجلس الرشيد ، سأل الخليفة عن بيت الراعى :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرمًا ودعا فلم أر مثله مقتولا

ما معنى محرما ؟

فتطوع الكسائى بالإجابة وقال : أحرم بالحج ، فقال الأصمعى : والله ما كان أحرم بالحج ، ولا أراد الشاعر أنه أيضًا فى شهر حرام فيقال أحرم إذا دخل فيه ؛ كما يقال : أشهر إذا دخل فى الشهر وأعام إذا دخل فى العام فقال الكسائى : ما هو غير هذا وفيم المراد ؟ ، فقال الأصمعى : ما أراد عدى بن زيد فى قوله :

قتلوا كسرى بليل محرماً فتولى لم يُمَتَّع بكفن

أى إحرام لكسرى ؟

فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : كل من لم يأت شيئاً يوجب عليه عقوبة فهو محرم ، لا يحل شىء منه ؛ فقال الرشيد : ما تطاق فى الشعر يا أصمعى ثم قال : يا علىّ ، إذا جاءك الشعر فإياك والأصمعى[٢٠] .

والأمثلة على تناوله الشعر والخوض فيه وفى معانيه بين يدى الرشيد كثيرة تتجاوز الحصر ، ولا بأس أن نورد طرفا منها :

قال : دخلت على الرشيد يومًا وهو محموم ، فقال : أنشدنى يا أصمعى شعرًا مليحا ، فقلت أرصيناً فحلاً يريده أمير المؤمنين أم سجيحاً سهلاً ؟ فقال : بل غزلاً بين الفحل والسهل ، فأنشدته للعديل بن الفرخ العجلى :

صحا عن طلاب البيض قبل مشيبه وراجع غض الطرف فهو خفيض

كأنى لم أرع الصبا - ويروقنى من الحى أحوى المقلتين غضيض

دعانى له يومًا هوى فأجابه فؤاد إذا يلقى المراض مريض

لمستأنسات بالحديث كأنه تهلل غر برقهن وميض

---

(١٩) العقد الفريد ٣ : ٤٩٧ .

(٢٠) أخبار النحويين البصريين ٦٠ .

فقال لى : أعدها ، فما زلت أكررها حتى حفظها[٢١] .

ودخل الأصمعى على الرشيد يوما وهو يأكل الفالوذج ، فوجد المناسبة ليسأله عن خبر مشهور لمزرد أخى الشماخ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن مزردا كان رجلاً جشعًا نهمًا ، وكانت أمه تؤثر عياله بالزاد عليه ، وكان ذلك مما يُضِرّبه ويحفظه ، فذهبت يومًا فى بعض حقوق أهلها ، وخلفت مزردًا فى بيتها ورحلها ، فدخل الخيمة ، فأخذ صاعين من دقيق ، وصاعًا من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضه ببعض ، فأكل ، ثم أنشأ يقول :

ولما مضت أمى تزور عيالها هجمت على العكم الذى كان تمنع
خلطت بصاعى حنطة صاع عجوة إلى صاع سمن فوقه يترتبع
وذيلت أمثال الأثافى كأنها رءوس رخال قطعت لا تجمع
وقلت : لبطنى أبشرى اليوم إنه حمًى آمن مما تخاف وتفزع
فإن كنت مصفورا ، فهذا دواؤه وإن كنت غرثاناً فذا يوم تشبع ![٢٢]

وتبوأ الأصمعى مكاناً عالياً لدى الرشيد حتى كان يرفعه على أبى يوسف القاضى[٢٣] واختصه بأسئلته عن الشعر والنوادر ، فإن كان حاضرا بالمجلس تكلم فيما يطلب إليه منها منفردًا أو مشركاً مع غيره من الحاضرين على قدر ما تسمح به مادة المدارسة .

ولقد أفاد الأصمعى من تجاربه ، وتمرّس بملابسات المجالس ، فأصبح ضنينًا برأيه لا يفرط فيه ، فكان يستبقى مادته فى صدره حتى يفرغ كلٌّ من رأيه . فإن أصاب القوم فيما تناقشوا فيه فليس على الأصمعى من حرج ، وإذا احتاجوا إلى رأيه بلغ بهذا الرأى مكان الصدارة عندهم وعند الرشيد جميعاً ، وكان بذلك مستحقًّا لثناء الخليفة ، فكان يقول له فى أكثر من مناسبة ما يفهم منه هذا الرضا كقوله : (ما تطاق فى الشعر يا أصمعى !) أو (أنت شيطان الشعر !) كما كان يقول للكسائى : (إذا جاءك الشعر فإياك والأصمعى) .. إلى غير ذلك .

وإذا كان المجلس خالياً من الأصمعى أرسلوا فى طلب الإجابة منه ، وبالرغم من أن بطانة الرشيد كانت تزخر بالأدباء والعلماء والرواة فإن هؤلاء جميعًا تركوا للأصمعى غريب الشعر والنوادر اعترافًا منهم باقتداره عليها ، وكان الكسائى الذى يحظى من الخليفة بتقدير كبير يقول

---

(٢١) الأغانى ٢٠ : ١٩ .

(٢٢) العقد الفريد ٦ : ٣٠٢ . وعيون الأخبار ٣ : ٢٠٤ .

(٢٣) مقدمة التهذيب للأزهرى ٤٨ .

للأصمعى : (لست أعرض لك فى الشعر والغريب والمعانى ، فدعنى والنحو !)[٢٤] .

سأل الرشيد يوماً عن البيت الذى عجزه :

(ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟)

فلم يعرفه أحد ، فقال إسحق الموصلى : الأصمعى مريض ، وأنا أمضى إليه فأسأله عنه ؛ فقال الرشيد : احملوا إليه ألف دينار لنفقته ، واكتبوا فى هذا إليه ؛ فجاء جواب الأصمعى : أنشدنا خلف لأبى النشناش النهشلى :

وداوية تيهاء يخشى بها الردى سرت بأبى النشناش فيها ركائبه
ليدرك ثأرا أو ليكسب مغنماً جزيلاً ، وهذا الدهر جم عجائبه
وسائله : أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه[٢٥]

ازداد الأصمعى تقرباً من الخليفة ، فكنا نلمحه ينفرد به يشاركه فى السهر والسمر ، يقول : بينا أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ، ويبكى مرة ثم أنشأ يقول :

قلد أمور عباد الله ذا ثقة موحد الرأى لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوى خطل لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت ذلك منه علمت أنه يريد أمرًا عظيماً ، ثم قال لمسرور الخادم : علىّ بيحيى ؛ فما لبث أن أتاه ، فأخذا يتحدثان .... فتنحيت جانباً بحيث أسمع كلامهما ..... وافترقا على أن يعقد الأمر للمأمون بعد الأمين[٢٦] .

وفى مرة أخرى يفاجئ أميرَ المؤمنين ، ويدخل عليه من غير إذن كأنه أصبح من خواصه ، يقول : دخلت يوماً على الرشيد وهو ينظر فى كتاب ، ودموعه تنحدر على خديه ، فظللت قائماً حتى سكن ، وحان منه التفاته فقال : اجلس يا أصمعى ؛ فجلست ؛ فقال لى : أرأيت ما كان ... ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ثم رمى بالقرطاس إلىّ ، فإذا فيه شعر لأبى العتاهية بخط جليل ، وهو :

هل أنت معتبر بمن خُلِيَتْ منه غداة مضى دساكره

---

(٢٤) إنباه الرواة ٢ : ٢٧٢ .

(٢٥) ديوان الحماسة ١١٥ ، والزهر ١ : ١٦٧ .

(٢٦) مروج الذهب ٦ : ٣٢٣ ط باريس .

وبمن أذل الصوت مصرعه فتبرأت منه عشائره
وبمن خلت منه أسرّته وبمن خلت منه منابره
أين الملوك وأين غيرهم صاروا مصيرًا أنت صائره
يا مؤثر الدنيا بلذته والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك أن تنال من الدنيا فإن الموت آخره

ثم قال : كأنى والله أخاطب بذلك دون الناس ! [٢٧] .

وكان يسامر الرشيد فى يوم أمطرت فيه السماء واستبشر الناس ، فسأله الرشيد أن ينشده فى المطر ، فقال : عندى ما أقوله وأخشى أن يسمعه جعفر بن يحيى ! قال : ما هو ؟ قال : حدثنى أعرابى قال : (أصابتنا سنة مجدبة ، وعندنا رجل غنى وله كلب ، فجعل الكلب يعوى جوعًا فأنشد صاحبه يقول :

تشكى إلىَّ الكلبُ شدة جوعه وبى مثل ما بالكلب أو بىَ أكثر
فقلت : لعل الله يأتى بغيثه فيضحى كلانا قاعدًا يتأمر
كأنى أمير المؤمنين من الغنى وأنت من النعمى كأنك جعفر !

فأغرق فى الضحك قائلا : قاتله الله من أعرابى) [٢٨] .

ومن حق الرشيد أن يستأثر بالأصمعى ، ويجعله فى معيته أينما حل وكيفما سار : فهو فى الرَّقَّة إذا كان الرشيد بالرقة ، وهو فى الحجاز عندما يؤدى الرشيد الفريضة ، ولا يكاد ينفصل عن معيته إلا فى أوقات الغزو ، وفى مجالس الرشيد الخاصة والتى ليس للأصمعى مكان فيها ، وهو يروى عن هذه الصحبة أخباراً جمة ذكرنا بعضها فى أماكنها من هذا البحث ، وتركنا أكثرها مكتفين بما نذكره على سبيل التمثيل . والأصمعى بدوره قد تهيأ لهذه الصحبة والسفر كلما طلب منه ذلك ، وكان يجمع كتبه فى صناديق يحملها معه ، وهى من الكثرة بحيث كان يحمل منها ثمانية عشر صندوقاً إذا خفف [٢٩] . ويروى الأصمعى خبراً بالرَّقَّة ، قبل انقضاء معيته مع الرشيد بعامين فيقول :

ركب الرشيد فى سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة ، فدخلت الميدان

---

(٢٧) مروج الذهب ٦ : ٣٥٩ .
(٢٨) العقد الفريد ٢ : ٣٠٤ .
(٢٩) الأغانى ٥ : ٦٤ ط بولاق ، ٥ : ٣٠٢ دار الكتب .

لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين ، والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن أبى جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر ، فجاء فرس أدهم يقال له الرَّبَد لهارون الرشيد سابقاً ، فابتهج لذلك ، وعُلم ذلك فى وجهه وقال : علىّ بالأصمعى ، فنوديت له من كل جانب ، فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه فقال : يا أصمعى ، خذ بناصية الرَّبَد ، ثم صفه من قونسه إلى سنبكه فإنه يقال : إن فيه عشرين اسما من أسماء الطير فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، وأنشدك شعرًا جامعاً لها من قول أبى حزرة (كنية جرير) ، قال : فأنشدنا لله أبوك ، فأنشدته :

وأقب كالسرحان ثم له ما بين هامته إلى النَّسر
رحبت نعامته ووفر فرخه وتمكن الصردان فى النحر

إلى أخر القصيدة ، وهى ثلاثة عشر بيتاً ، قال : وحصلت على عشرة آلاف درهم[٣٠] .

ويورد الخطيب البغدادى خبرًا يشترك فيه الأصمعى وابن أبى حفص الشطرنجى يتسابقان إلى شعر يصيب المعنى الذى فى قلب الرشيد لقاء عشرة آلاف درهم ، ثم لا يلبث الخليفة أن يشاركهما بشعر يقوله هو[٣١] .

ويبدو أن الإخباريين ، والقُصّاص ، وذوى الأهواء قد وجدوا فى الرجلين اللَّمعيْن الرشيد والأصمعى – هدفاً يتسع لأغراضهم ، فأسندوا إلى مجلس الشعر واللغة والغريب فى قصر الخليفة ما يحقق هذه الأغراض ، وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وأغانى الأصفهانى ، وزهر الآداب للحصرى القيروانى – أنباء الأصمعى فى مجلس الرشيد ، وفيها ما يتفق مع طبيعة الرجلين ، وفيها مالا يتفق أيضاً ، ويحتاج تخليصه إلى جهد شديد .

صلة الأصمعى بالبرامكة :

إذا تجاوزنا عن الخبر الطويل الذى ذكره ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، وجعل سبيل الأصمعى إلى الرشيد تمسحه بالحرس – وجدنا صلته بالبرامكة تبدأ فور وصوله إلى بغداد ، فيقيم له الفضل بن يحيى البرمكى مأدبة فاخرة جمع عليها صنوف الطعام من سمك كنعد ،

---

(٣٠) العقد الفريد ١ : ١٩٤ . والمزهر ١ : ١٨٢ . وبلوغ الأرب ٣ : ٩٧ على اختلاف فى الرواية .

(٣١) تاريخ بغداد ١٤ : ٩ و ١٠

وكامخ جهز بالشبث إلى غير ذلك ، وكان الأصمعى يشير على أبى عبيدة ويدعوه إلى تناول هذه الأطعمة ، ولكن أبا عبيدة – وربما أحس بأن القوم قد بيتوا اختيارهم للأصمعى – كان يرد عليه فى حدة : ما فررت من البصرة إلا من هذه الأطعمة ! (٣٢) .

وتشير أخبار أخرى إلى أن جعفر بن يحيى كان سبب الأصمعى إلى الرشيد : ذكر ذلك الجهشيارى فقال : إن جعفر بن يحيى كان سبب الأصمعى إلى الرشيد ، وكان بين الأخوين جعفر والفضل خصومة تتصل بتنافسهما على بعض مقاليد الأمور حتى كاد يَسَبّ (٣٣) كلٌّ منهما صاحبه : فكان الفضل إذا أراد أن يكيد لجعفر أهان الأصمعى وذهبنا نحدس : هل هو الذى أشار باستقدامه من البصرة أو كان صاحب الاختيار وتفضيله على أبى عبيدة ؟ وسواء كانت هذه أو تلك فقد توطدت صلة الأصمعى بجعفر ، وأصفاه مدحه ، وانحاز إلى جانبه وقال فيه :

إذا قيل من للندى والعلا من الناس – قيل الفتى جعفر
وما إن مدحت فتًى قبله ولكنْ بنو برمكٍ جوهر

وبالرغم من المدة الطويلة التى قضاها الأصمعى فى كنف الرشيد ، وحسن رأى الخليفة فيه – فإنه لم يقدم إليه شيئاً من كتبه على عادة العلماء فى ذلك الوقت ، ولكنه أهدى لجعفر كتابه (النوادر) الذى كان فيما يبدو كتاباً ثميناً تأثر به العلماء وعملوا على نمطه .

ولجعفر مع الأصمعى مداعبات تدل على عمق ما بينهما ، وإن انتهت بحرمان الأصمعى من جائزة جعفر : زعم أبو يعقوب الخريمى أن جعفر بن يحيى أراد يوما حاجة كان طريقه إليها على باب الأصمعى ، وأنه دفع إلى خادم له كيساً من النقود فيه ألف دينار ، وقال له : سأنزل فى رجعتى إلى الأصمعى ، وسيحدثنى ويضحكنى ، فإذا كان كذلك فضع الكيس فى حجره ؛ ثم صار إليه ومعه أنس بن أبى شيخ ، فحدثه الأصمعى بكل شىء ، فلم يضحك وانصرف ، فقال له أنس : أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس عادتك رد شىء . قد أمرت بإخراجه من بيت مالك فقال له جعفر : ويلك ... ! لقد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم ، ولم أدخل له بيتًا قبل هذه المرة ورأيت حبه مكسوراً ، وعليه برنكان منجرد ، وتحته مصلى وسخ ، وكل ما عنده رث وأنا أرى لسان النعمة أنطق من لسانه ، وأن ظهور الصنيعة

---

(٣٢) أخبار النحويين البصريين ٥٤ .

(٣٣) يسبّ : يعيب ويشتم .

أمدح وأهجى من مديحه وهجائه فعلام أعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ، ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ثم تمثل ببيت نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب[٣٤]

وبالرغم من هذا الحرمان الذى أصاب الأصمعى فإنه ظل على هواه لجعفر .

وفى تصرف الرشيد مع الأصمعى بعد مقتل جعفر إشارة إلى أنه كان يدرك عمق العلاقة بين الرجلين ، وأن يد الخليفة عليه وإحسانه له وقربه منه لن يستلّ من قلب الأصمعى كراهيته لهذا العمل البشع .

والأصمعى كأى إنسان قرب من السلطان ، وخاصة فى العصر العباسى – لم ينج من الدسائس ولم يفلت من المؤامرات التى تحاك للبارزين أمثاله ، فانتهى عهده فى بغداد بنهاية البرامكة : إما لاعتقاد الرشيد بصلته بهم ، أو لايقاع خصومه به ، أو لشىء يتعلق بسياسة الفضل بن الربيع ، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة ؛ وهى كما أرى وشيجة الصلة ؛ فما كاد الرشيد ينتهى من قتل جعفر البرمكى حتى أرسل من فوره إلى الأصمعى ، وكان بين يدى الرشيد طست مغطًّى بمنديل ، فأمر بكشفه ، فإذا رأس جعفر بن يحيى ، فقال الرشيد :

لو أن جعفر خاف أسباب الردى لنجا بمهجته طمر ملجم
ولكان من حذر المنون بحيث لا يرجو اللحاق به العقاب القشعم
لكنه لما تقارب عهده لم يدفع الحدثان عنه منجم

الحق بأهلك يا بن قريب ![٣٥] .

ارتعدت فرائص الأصمعى وداخله الخوف ، فنهض ولم يحر جوابا ، قال : فلما أفرخ روعى فكرت فى ذلك فوجدته أخذ يعلمنى مكره ونكره ودهاءه ؛ ليُتحدث بها عنه ، فخرجت وأنا أقول :

أيها المغرور هل لكْ عبرة فى آل برمكْ
غرّهم عن قدر الله م حساب الهشتمرْك
عبرة لم ترد أنـ ـت ولا قبل أب لكْ

وكانت هذه الأبيات آخر عهده ببغداد ، وكان ما يبدو فيها من هجاء لآل برمك هو

---

(٣٤) الوزراء والكتاب ١٨٩ ومروج الذهب ٦ : ٣٦٧ ط أوربا .

(٣٥) أخبار النحويين البصريين ٥١ ، مروج الذهب ٦ : ٣٩٩ ، وفيات الأعيان ١ : ٣٠٢ .

الرخصة التى يعبر بها حدود المدينة سليماً معافى ليلحق بأهله فى البصرة .

وهكذا أمضى الأصمعى فترة طويلة إلى جانب الرشيد ، عرفته فيها زبيدة[٣٦] والمحافل العلمية ، واكتسب الدراهم ، ولبس حلل الخلفاء[٣٧] وركب براذينهم ، واختال بها فى شوارع بغداد ثم خفت هذا الضوء ليلمع مرة أخرى فى البصرة ، وكان قد ترك فى بغداد إلى جانب ما تركه من علم وفضل حسداً وغيره فى صدور بعض زملائه العلماء ، وعلى رأسهم إسحق الموصلى الذى كان يرى فى الأصمعى غريماً له فى صيد الدراهم ، فكتب من فوره إلى صاحب الأمر إذ ذاك الفضل بن الربيع ، يذم الأصمعى ويؤلبه عليه حتى يقطع آخر فكرة فى الإبقاء عليه فى بغداد إن كان ثمة فكرة عند الأصمعى أو عند أصحاب الرأى فى دار الخلافة ، ولم يدر بخلد الموصلى أن الأصمعى لفرط ما لحق به من الرعب والخوف لم يفكر حتى وفاته أن يدخل بيت الخلافة فى يوم من الأيام .

ثم — كتب الموصلى إلى الفضل بن الربيع يشير عليه باستقدام أبى عبيدة فى محاولة لسد الفراغ الذى تركه الأصمعى ، فقال :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإن الفضل عند أبى عبيدة
وفضله وآزره عليه ودع عنك القريد بن القريدة

وتهيأت المناسبة مرة أخرى لأبى عبيدة ، فرأيناه فى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة[٣٨] ورأيناه فى مجلس الفضل بن الربيع نفسه يناقشه فى مسائل من القرآن الكريم ، ويقول : أقدمناه من البصرة لنفيد من علمه .

---

(٣٦) داعب الرشيد زبيدة فقال لها : يا أم نهر فكادت تغضب ، فاستدعت الأصمعى . وسألته عن معنى النهر ، فقال لها : إنه الطفل الصغير .

(٣٧) قال الأصمعى : ذكرت يوماً للرشيد سليمان بن عبد الملك ، وقلت إنه كان يجلس ويحضر بين يديه الخراف المشوية وهى كما أخرجت من تنانيرها ، فيريد أخذ كلاها فتمنعه الحرارة ، فيجعل يده على طرف حلته ويدخلها فى جوف الخروف فيأخذ كلاه ، فقال لى : قاتلك الله ! ما أعلمك بأخبارهم ! اعلم أنه عرضت علىّ ذخائر بنى أمية ، فنظرت إلى ثياب مذهبة يمنية وأكمامها ودكة بالدهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثنى بالحديث ثم قال : علىّ بثياب سليمان ، فأتى بها ، فنظرنا إلى تلك الآثار ظاهرة فيها ، فكسانى منها حلة . وكان الأصمعى إذا خرج فيها يقول : هذه جبة سليمان التى كسانيها الرشيد وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٧ .

(٣٨) وفيات الأعيان ٤ : ٣٢٤ .